(٢٨)

الرسالة النظامية

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين. قال الإمام المؤلف شيخ الإسلام ابن تيمية:

((قال «أبو المعالي الجويني» في كتاب «الرسالة النظامية» : اختلفت مسالك العلماء في هذه الظواهر، فرأى بعضهم تأويلها، والتزم ذلك في آي الكتاب، وما يصح من السنن وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الرب. قال: والذي نرتضيه رأيًا وندين الله به عقدًا: اتّباع سلف الأمة، والدليل السمعي القاطع في ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة، وهو مستند معظم الشريعة. وقد درج صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ترك التعرض لمعانيها ودَرْك ما فيها . وهم صفوة الإسلام، والمستقلون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهدًا في ضبط قواعد الملة، والتواصي بحفظها، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها . فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغًا أو محتومًا: لأوشَكَ أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل، كان ذلك هو الوجه المتبع، فحق على ذي الدين أن يعتقد تنزيه الله عن صفات المُحدَثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويَكِلْ معناه إلى الرب؛ فليجر آية الاستواء والمجيء وقوله: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص:٧٥] ، {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن:٢٧] ، وقوله: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [القمر:١٤] ، وما صح من أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم كخبر النزول وغيره على ما ذكرنا».))

الجويني من أساطين المذهب الأشعري ومن متأخريهم وممن نحى بمذهب الأشاعرة منحى أكثر إيغالاً في التأويل، فإنه قد ألف كتابين أحدهما "الإرشاد" والآخر هو "الشامل" وبالغ في التأويل فقد كان متقدموا الأشاعرة يثبتون الصفات الخبرية ويؤولون الفعلية كطبقة البيهقي والخطابي غيرهم ثم لما جاءت نوبة أبو المعالي الجويني وكان ميلاده سنة ٤١٩ هـ ووفاته سنة ٤٧٨ هـ وكان يلقب بإمام الحرمين لسعة علومه في علوم الفقه والآلة والأصول وصفاء التفكير في هذه المسائل، إلا أنه انحرف في باب الاعتقاد وسلك مسلك التأويل ثم كان حاله في آخر عمره أن ألف رسالة سماها النظامية كتبها لنظام الملك فعرفت باسم النظامية، تبرأ فيها من التأويل كما سمعتم أي التحريف، ورأى أن هذه الطريقة طريقة عف عنها الصحابة الكرام والتابعون لهم بإحسان وبرؤوا منها فلا يحفظ أن أحد منهم أنه حرف أو أول شيئًا مما أخبر الله تعالى به عن نفسه أو أخبر عنه نبيه ﷺ. ولو كان في التأويل خيرا لكانوا أسبق الناس إليه لشدة تعظيمهم لله ﷻ ونهمهم في العبادة وأعمار قلوبهم بذكره ﷻ. فلو كان في هذا محمدة ومنقبة لكان أولى الناس بذلك هم خير القرون الصحابة والتابعون. فلما لم يشتغلوا بذلك علمنا أن هذا منقصة ومذمة. فلذلك رد التأويل. لكن يبقى في كلامه أنه قال ((**الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها على الرب**)) فاستنبط القارئ من هذا الكلام أن الجويني انتقل من طريقة التحريف أو ما يسمونها التأويل لطريقة التفويض بمعنى الإيمان بالألفاظ دون إثبات معاينها. وهذا محتمل من كلامه رحمه الله. لكن ربما يكون له توجيه آخر هو أن يكون أراد بـ"المعاني" ها هنا الكيفية التي كان السلف يفوضونها لله ﷻ. ربما أراد هذا المعنى، تفويض معانيها لله يعني ما هي عليه في الحقيقة والواقع. فنحن لو أحسنا

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ [1]

الظن وحملناها على المحمل الموافق فقلنا لعله أراد بقوله "تفويض معاينها" أي حقائقها التي هي عليها في الواقع وكيفياتها، فهذا يفوض لله ﷻ فلا سبيل للعلم به. لكننا في الواقع نحتاج لعبارات أوضح حتى نصل لهذا الحكم. فقد مر بدروس سابقة كلامٌ لابن قدامة المقدسي شبيه بهذا الكلام فيه ذكر تفويض المعاني. لكننا نجد في كلام ابن قدامة الآخر في "اللمعة" و"ذم التأويل" ما يدل على أنه يثبت المعاني الصحيحة التي دلت عليها لغة العرب وأنه أراد بتفويض المعنى أو التحذير من ذكر المعاني يعني المعاني المحدثة التي ابتكرها المعتزلة والمتكلمون. فعلى كل حال يحمد لأبي المعالي رجوعه عن طريقة التأويل والتحريف ويرجى أنه صار لطريقة السلف. وهو لا شك عاد عودًا إجماليًا وتمنى أن يموت على طريقة السلف. بل وتمنى أن يموت على عقائد عجائز نيسابور. فمن القصص المشهورة عنه كان في موكبه الحافل والناس من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وشماله فأطلت عجز من العجائز من كوة بابها فقالت من هذا؟ فقيل لها هذا الجويني، فقالت ومن الجويني؟ قالوا إمام الحرمين، قالت من يكون؟ يعني لا تعلمه، هي عجوز من عجائز المسلمين. قالوا هذا الذي يقرر وجود الله بألف دليل، فوضعت كمها على فيها وجعلت تضحك وقالت وهل يحتاج وجود الله لدليل؟ فبلغته المقالة وعجب منها وحفظها في ذاكرته حتى لما حضرته الوفاة بكى وقال **لقد خضت البحر الخضم وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوا عنه وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي**. يعني العقيدة الأصلية الفطرية. ((**ياليتني أموت على عقيدة عجائز نيسابور**)). يعني ليته لم يخض في علم الكلام ولم يدخل فيه ولم يسود الصفحات ولم يجر المناظرات. وكان هو من فرسان المناظرات حتى إنه يقال أن من طرائفه أن أباه رحمه الله – وكان أبوه عالمًا مشهورًا وكان على طريقة السلف، فكان حريصًا على تربيته وألا يسترضع إلا من والدته أو من ملك يمينه الذين يعلم مأكلهم ومشربهم فدخل يومًا وإذا بالصبي قد غلبه البكاء يعني عبد الملك الجويني قد غلبه البكاء وأخذته إحدى النساء ترضعه، فنزعه من يدها؛ لأنه لا يريد أن يدخل في جوف ابنه إلا من قد علم حله. فهو لا يعلم من أين يأكل الناس وما هي مكاسبهم، فمن شدة حرصه أخذ الصبي من حضنها وادخل إصبعه في جوفه وجعله يتقيأ ما فيه، لا يريد أن يدخل في بدنه شيء لا يعلم صحة كسبه ودخله. فيقال إن الجويني رحمه الله كانت تدركه فترة في المناظرات –يعني يلحقه فتور مع المناظرات والأخذ والرد والسجال، فكان يقول: هذا من أثر تلك الرضعة. والله تعالى أعلم.

ثم إنه قال ((**قلت: وليعلم السائل أن الغرض من هذا الجواب ذكر ألفاظ بعض الأئمة الذين نقلوا مذهب السلف في هذا الباب، وليس كل من ذكرنا شيئًا من قوله من المتكلمين وغيرهم يقول بجميع ما نقوله في هذا وغيره؛ ولكن الحق يقبل من كل من تكلم به؛ وكان معاذ بن جبل يقول في كلامه المشهور عنه، الذي رواه أبو داود في سننه: «اقبلوا الحق من كل مَنْ جاء به؛ وإن كان كافرًا . أو قال فاجرًا . واحذروا زيغة الحكيم. قالوا: كيف نعلم أن الكافر يقول الحق؟ قال: إن على الحق نورًا» أو قال كلامًا هذا معناه.**))

إذن بين الشيخ رحمه الله منهجه بوضوح في هذا. وأنه نقل عن بعض المتكلمين ما وافقوا فيه مذهب السلف وبين أيضًا أن هؤلاء المتكلمين لا يقولون بجميع ما نقول. تأمل، قال ((**وليس كل من ذكرنا شيئًا من قوله من المتكلمين وغيرهم يقول بجميع ما نقوله.**)) يعني قد يوافقنا في شيء ويخالفنا في شيء. وهذا من إنصافه رحمه الله وبيانه فهو لا يلبس ولا يدلس على القارئ. ثم قال ((**ولكن الحق يقبل من كل من تكلم به**)). وهذا يا كرام ينبغي أن يتجذر في القلب وهو أن يكون الحق ضالة

المؤمن، أنى وجده فهو أولى الناس به فليكن معيارك هو قبول الحق دون النظر لمن تكلم به فإن المختلفين يقع عندهم أحيانًا من التعصب ما يحملهم على رد الحق بسبب انتماء شخص لمذهب أو طريقة أو غير ذلك. ليكن المقياس والمعيار هو موافقة هذا الكلام الحق للكتاب والسنة، فإن نطق قائل بحق فاقبله ولا ترده لكون الذي تكلم به فلان، بل اعرضه على القسطاس المستقيم والمعيار الحكيم، الكتاب والسنة، فإن وافق فاقبله كما أوصى بذلك معاذ ﷺ، قال **"اقبلوا الحق من كل من جاء به وإن كان كافرًا – أو قال فاجرًا– واحذروا زيغة الحكيم"**، ومراده بزيغة الحكيم أن الرجل الحكيم الموفق المسدد ربما وقع منه هفوة وذلة ونبا قلمه وكبا في بعض كلامه. فلينتبه الإنسان فإنه لا عصمة إلا لكلام الله ﷻ أو كلام نبيه ﷺ. فربما يقع من الحكيم زيغة. فلهذا قال أصحابه كيف نعلم أن الكافر يقول الحق؟ قال **"إن على الحق نورًا"**. صحيح الكلمة الصائبة عليا نور. وفي كتاب الله معشر طلبة العلم ما فيه غناء وكفاية يغنينا عن أن نلتمس بعض الكلام عند الكافر أو الفاجر. لكن إذا جاء الحق لا نرده لكونه صدر من كافر أو فاجر وإنما أقول هذا الكلام لأني أرى من بعض الخيار وطلبة العلم من يستفيض ويستروح للنقل عن بعض الشخصيات الغربية أو الشرقية أو غير ذلك من غير المسلمين، ويحتفي بها ويبرزها، فيقول قال نيلسون مانديلا ويسوق كلامًا له كأنه ليس في سلف هذه الأمة من وفق لكلام خير منه. فرق بين أن نرد كلام صواب نطق به يهودي أو نصراني أو بوذي أو غير ذلك وبين أن نستدل به ونستشهد به، قد أغنانا الله عنهم، فلا محوج لهم. ففي كلام الله وكلام نبيه ﷺ وكلام السلف المتقدمين ما يغني عن أقوال هؤلاء. فلا حاجة للنقل عنهم اللهم إلا أن يكون ذلك على قاعدة **من فمك أدينك**. وإلا فلا ينبغي أن نعظم من هونه الله وأن نقدم من أخره الله. نحن في غنية. لا ينبغي لطالب العلم أن يتزين بمثل هذا. تزين بزينة الإيمان، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين. لا تلجأ لمثل هذه النقولات فأنت في غنى عنها.

((الفتوى لا تتسع لعرض الشبه والآراء والرد عليها] :

فأما تقرير ذلك بالدليل، وإماطة ما يعرض من الشبه، وتحقيق الأمر على وجه يخلص إلى القلب ما يبرد به من اليقين ويقف على مواقف آراء العباد في هذه المهامِهِ، فما تتسع له هذه الفتوى، وقد كتبت شيئًا من ذلك قبل هذا، وخاطبت ببعض ذلك بعض من يجالسنا، وربما أكتب . إن شاء الله . في ذلك ما يحصل المقصود به.

[الكتاب والسنة فيهما النور والهدى] :

وجماع الأمر في ذلك: أن الكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدى والنور لمن تدبر كتاب الله وسنة نبيه، وقصد اتباع الحق، وأعرض عن تحريف الكلم عن مواضعه، والإلحاد في أسماء الله وآياته.

[لا تعارض بين نصوص المعية وبين نصوص العلو] :

ولا يحسب [الحاسب أن شيئًا من ذلك] يناقض بعضه بعضًا البتة، مثل أن يقول القائل: ما في الكتاب والسنة من أن الله فوق العرش يخالفه في الظاهر قوله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} [الحديد:٤] ، وقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قِبَل وجهه» ونحو ذلك، فإن هذا غلط.

[الله معنا حقيقة وفوق العرش حقيقة] :

وذلك أن الله معنا حقيقة، وهو فوق العرش حقيقة كما جمع بينهما في قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: ٤].

فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء وهو معنا أينما كنا، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الأوعال: «والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه» .

[كلمة مع في اللغة لا تقتضي المماسة أو المحاذاة] :

وذلك أن كلمة «مع» في اللغة إذا أطلقت، فليس في ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين وشمال، فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى، فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، أو النجم معنا. ويقال: هذا المتاع معي لمجامعته لك، وإن كان فوق رأسك، فالله مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة.

[معنى قول السلف: معهم بعلمه] :

ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد، فلما قال: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} [الحديد:٤] دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم، شهيد عليكم ومهيمن عالم بكم. وهذا معنى قول السلف: «إنه معهم بعلمه» ، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته.

وكذلك في قوله {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ} إلى قوله: {هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} [المجادلة:٧] ، ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم لصاحبه في الغار: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا} [التوبة: ٤٠] كان هذا أيضًا حقًا على ظاهره، ودلت الحال على أن حكم المعية هنا . مع الاطلاع . والنصر والتأييد.

وكذلك قوله: {إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} [النحل:١٢٨] ، وكذلك قوله لموسى وهارون: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه:٤٦] . هنا المعية على ظاهرها، وحكمها في هذا الموطن النصر والتأييد.

وقد يدخل على صبي من يخيفه، فيبكي، فيشرف عليه أبوه من فوق السقف ويقول: لا تخف، أنا معك، أو أنا حاضر ونحو ذلك، ينبهه على المعية الموجبة بحكم الحال دفع المكروه، ففَرْقٌ بين معنى المعية وبين مقتضاها، وربما صار مقتضاها من معناها، فيختلف باختلاف المواضع.

[استعمال لفظ المعية في الكتاب والسنة في مواضع مختلفة] :

فلفظ المعية قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع يقتضي في كل موضع أمورًا لا يقتضيها في الموضع الآخر، فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع، أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردها . وإن امتاز كل موضع بخاصية . فعلى التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب مختلطة بالخلق حتى يقال: قد صرفت عن ظاهرها.))

هذا بحث مفيد في بابه يتعلق بمسألة المعية. فإن الشيخ رحمه الله قد أراد أن يضرب مثلاً على أن كلام الله تعالى لا يقع فيه تناقض. وبين ما قد يطرأ على الأذهان كيف يمكن أن يكون الله ﷻ مستويًا على عرشه وفي نفس الوقت يصف نفسه بالمعية لخلقه أو أنه قبل وجه المصلي فقال إنه ليس في ذلك تناقض البتة وإنما تبادر إلى ذهنه هذا المستشكل أن مقتضى المعية هو الحلول والاختلاط فنشأ عنده هذا الإشكال من جراء فهم قاصر لمعنى كلمة المعية فظن أن كلمة المعية لا تحمل إلا على محمل واحد وهو الاختلاط والامتزاج؛ لأنه متى رأى أنه لو قال جعلت الماء مع اللبن بمعنى مزجته وخلطته. صب ماء على لبن فنشأ امتزاج واختلاط، فتوهم هذا المستشكل أن مقتضى المعية أن يكون الله حال بين خلقه ممتزجًا مختلطًا بينهم. فكيف يجمع بين هذا وبين قوله ﷻ {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥]وأدلة العلو ونحو ذلك وكذلك الحديث "فإن الله قبل وجهه" كيف يكون قبل وجهه وهو في السماء. أما مسألة المقابلة فلنجب عنها سريعًا لنتجاوزها لمسألة المعية بأن يقال: أنه لا تعارض بين المقابلة وبين العلو حينما تشرق الشمس تكون الشمس قبالة وجهه أليس كذلك؟ ومع ذلك هي في السماء، فإذا كان هذا يمكن أن يجتمع في حق المخلوقات يجتمع علو ومقابلة فلأن يكون في حق الله من باب أولى. لكن لنرجع إلى الإشكال الأول وهو كيف نجمع بين النصوص الدالة على علو الله ﷻ –وهي كثيرة وفيرة ومنها نصوص الاستواء على العرش – وبين وصفه ﷻ لنفسه بأنه مع خلقه مثل قوله ﷻ في الآية {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (الحديد:٤) في آية واحدة في سورة الحديد جمع الله بين العلو والمعية. وفي سورة المجادلة قال { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} (المجادلة:٧) فأثبت ﷻ لنفسه المعية. الجواب عن ذلك وأعيروني أسماعكم. إن لفظ المعية يدل على مطلق المقارنة والمصاحبة. هكذا أصل وضعه في لغة العرب. لفظ "مع" في لغة العرب يدل على مطلق المقارنة والمصاحبة، يعني مقارنة مطلقة ومصاحبة مطلقة. ما الذي يحدد هذا الإطلاق ويقيده؟ السياق والقرائن والأحوال هي التي تحدده. بمعنى أن لفظ المعية في استعمال العرب في الأصل موضوع لمطلق المقارنة والمصاحبة ثم القرائن والسياق والإضافات هي التي تحدد هذا الإطلاق وتقييده. فمثلاً إذا قال الرجل زوجتي معي وهو في المشرق وهي في المغرب، تبين أن المراد بهذه المعية معية العصمة، عصمة عقد النكاح، وليست المعية التي بمعنى أنه هو وإياها في مكان واحد أو على فراش واحد. يقول الرجل زوجتي معي يعني في عصمتي بمعنى أنه لم يفارقها. فهذا نوع من المعية. يقول الإنسان لمن رآه يغرق أو يحترق لا تخف أنا معك، مع أنه ليس معه في الحفرة لو كان ساقطًا في الحفرة وليس معه في اليم بين لججه وليس معه في البيت الذي يحترق وإنما قصد بقوله أنا معك يعني أساعدك أنصرك وأؤيدك. ويقول السلطان أو الشرطي للجاني اذهب وأنا معك. لا يقصد أنه يتابعه كظله ولا يفارقه ملازم له. بل هو أنه تحت السمع والبصر يهدده بذلك. وتارة يقول القائل جعلت الماء مع اللبن يعني خلطته ومزجته. فدل ذلك على أن لفظ المعية له استعمالات متعددة. وأنه تارة يدل على النصر والتأييد وتارة يدل على التهديد والوعيد تارة يدل على نوع من الاجتماع والارتباط. فيدل على معاني متعددة يحددها السياق والقرائن والأحوال. ها أنت تسير في ضوء القمر في ليلة مقمرة وتقول ما زلت أسير والقمر معي مع أنك لم تتأبط القمر ولم تسر وإياه جنبًا إلى جنب.

القمر في السماء وتقول ما زلت أسير والقمر معنا. فهذه معية مطلقة تعني أن هناك نوعا من الصلة، لم يغب عنكم القمر طوال سيركم. مع أن القمر في السماء وأنت في الأرض. وكذا حينما قال ﷺ لصاحبه { لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}

(التوبة: ٤٠)، يعني بنصره وتأييده، فالله ﷻ في سماواته فوق عرشه والنبي ﷺ وصاحبه في جوف الغار. وكذا حين قال ﷻ لموسى وهارون {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} (طه: ٤٦). إذن معيته ﷻ لهما معية نصر وتأييد بسمعه وبصره.

ولهذا قسم العلماء المعية إلى قسمين: معية عامة ومعية خاصة. وبين النوعين فروقات. المعية العامة لها مقتضى والمعية الخاصة لها مقتضى. **المعية العامة تقتضي الإحاطة** بالسمع والبصر والعلم والقدرة وسائر صفات الربوبية. هذه هي المعية العامة. **أما المعية الخاصة فإن مقتضاها النصر والتأييد.** { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} (النحل: ١٢٨) {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} (البقرة١٥٣) وهكذا. {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} (طه: ٤٦) {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} (التوبة: ٤٠) فهذا يدل على الفرق بين المعيتين من حيث المقتضى.

من حيث المتعلق. المعية العامة تتعلق بجميع الخلق؛ إنسهم وجنهم برهم وفاجرهم ولا يخرج عنها أحد؛ لأنها من الربوبية. فالله ﷻ مع الجميع معية عامة حتى مع فرعون. فحين قال ﷻ لموسى {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} (طه: ٤٦) هو في الواقع والحقيقة مع موسى وهارون ومع فرعون معية عامة. فالمعية العامة تشمل المؤمن والكافر البر والفاجر. **لكن المعية الخاصة تكون للمؤمنين للصابرين للمجاهدين لمن كان له صفة من الصفات التي يحمدها الله له.** فلذلك اختص موسى وهارون بمعية خاصة دون فرعون {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} (طه: ٤٦).

فرق ثالث من حيث الأثر: ما الذي يثمره الإيمان بمعية الله العامة؟ في نفس المؤمن بها، وما الذي تثمره المعية الخاصة؟ المعية العامة تثمر في نفس المؤمن العلم رقابة الله تعالى والخوف منه والحياء منه؛ لأن العبد المؤمن لو علم أن الله تعالى معه بسمعه وبصره يعني يسمعه ويبصر حاله، فإن ذلك يثمر في قلبه كمال المراقبة فيستحي ويرعوي. أما غير المؤمن أصلاً بمعية الله لا ينتفع بهذا العلم. طيب المعية الخاصة ما الذي تثمره في قلب المؤمن؟ تثمره ثبات وطمأنينة وسكينة وثبات { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ} (الأنفال: ١٢) وكذا حين قال ﷺ { لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} (التوبة: ٤٠) ما الثمرة؟ السكينة والثبات والطمأنينة. هذا من حيث الأثر.

نلتمس فرقًا رابعًا بين المعيتين: أيهما صفة ذاتية وأيهما صفة فعلية؟ المعية العامة صفة ذاتية؛ لأنها ملازمة لله ﷻ إذ أن مقتضياتها صفات ذاتية السمع والبصر والعلم والقدر. كلها صفات ذاتية فلا تنفك ن الله ﷻ فهي صفة ذاتية. **أما المعية الخاصة فإنها فعلية؛ لأنها مقترنة بأسبابها.** فإذا وجدت أسبابها وجدت المعية الخاصة يعني لو وجد الصبر وجدت المعية الخاصة {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} (البقرة١٥٣) ولو وجدت التقوى وجدت المعية الخاصة { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} (النحل: ١٢٨) فلو وجدت التقوى والإحسان وجت المعية الخاصة وهكذا..

فهذه أربعة فروق بين المعية العامة والمعية الخاصة.

الأخيرة منهم أن المعية العامة من صفات الله الذاتية لأنها لا تنفك عن الله ﷻ إذ أن مقتضياتها من الصفات الذاتية كالسمع البصر والعلم والقدرة والإرادة لغير ذلك. لذلك فالمعية العامة صفة ذاتية. المعية الخاصة فعلية؛ لأنها مقترنة بأسبابها وصفات الله ﷻ الفعلية هي التي يفعلها متى شاء. فلما كانت مسببة كانت فعلية وذلك أن الله ﷻ يكون مع من أتى بأسبابها

وشرائطها كالتقوى والإحسان والجهاد والصبر، فإذا وجدت هذه الأوصاف وجدت المعية الخاصة التي تقتضي النصر والتأييد وتثمر السكينة والثبات. فهذه أربعة فروق بين المعيتين.

فالسلف رحمهم الله حينما ذكروا آية سورة المجادلة {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (الحديد:٤) قالوا بعلمه وصدقوا فإن هذا من ظاهرها ولذلك قال الشيخ رحمه الله في كلامه ((**ففرق بين معنى المعية وبين مقتضاها وربما صار مقتضاها من معناها فتختلف باختلاف المواضع**)) لاحظ ((**ففرق بين معنى المعية وبين مقتضاها**)) ما هو معنى المعية؟ مطلق المقارنة والمصاحبة. ما هو مقتضاها؟ مقتضاها في آية الحديد وآية المجادلة العلم والسمع والبصر والإحاطة بسائر صفات الربوبية. وفي آية طه {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} (طه: ٤٦) مقتضاها النصر والتأييد وكذا في آية براءة {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: ٤٠] فالشيخ يقول إنه ليس بالضرورة أن معناها مقتضاها لكن ربما كان مقتضاها من معناها مثلما فسر السلف رحمهم الله المعية في آية الحديد بالعلم، فقال الإمام أحمد ابتدأ الآية بالعلم واختتمها بالعلم. فأرادوا بذلك الرد على حلولية الجهمية. **هذا هو ما حمل السلف على تفسير المعية بمقتضاها للرد على حلولية الجهمية** الذين يزعمون أن الله ﷻ حال في كل مكان. ولاحظوا أن الشيخ رحمه الله عبر في مبدأ كلامه وقال ((**وذلك أن الله معنا حقيقة وهو فوق العرش حقيقة**)) وقوله ((**وذلك أن الله معنا حقيقة**)) ليس من لازم ذلك أن يكون مختلطًا بخلقه. فهذه كلمته وهذا توجيهها.

ولأجل ذا جرى من شيخنا محمد بن صالح العثيمين رحمه الله أن كتب كتابة قال أن المعية "معية حقيقية ذاتية[1]". أراد هذا المعنى الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنها معية حقيقية. فالتبس هذا على بعض الناس وظنوا أن معنى المعية الذاتية مرادف لمعنى "بذاته". وتوهموا أن هذا يقتضي القول بقول حلولية الجهمية. وحاشا وكلا أن يكون هذا هو المراد وهم يعلمون أنه لا يمكن أن يكون هذا مراد الشيخ رحمه الله لكنهم استنكروا الكلمة "معية حقيقة". وهو لم يعبر أبدًا بالقول معنا بذاته حاشا وكلا. لكن بعض الغيورين استنكر كلمة "معية حقيقة" ورأى أن من لازم المعية الذاتية القول بالحلول والاختلاط وها هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول أن الله ﷻ معنا حقيقة.

لكن الشيخ رحمه الله لكمال عقله ووفور علمه لما روجع في هذا الأمر كتب وقال إن كل كلمة يمكن أن تحدث لبسًا أو خطأ في الفهم فإنه ينبغي تركها وهجرها. فترك القول بها وكتب ذلك بخط يده وترك التعبير بقول "معية حقيقة" لدفع مثل هذا التوهم الذي قد ينشأ في النفوس وإلا فهو رحمه الله ما خرج عن تعبير السلف في هذا وإنما أراد بقوله "معية حقيقة " أي أنها حق على حقيقتها التي أخبر الله ﷻ بها "**وقد سبقه لهذا التعبير شيخ الإسلام بقوله إن الله معنا حقيقة**" وليس من لازم ذلك ما يتوهمه المتوهم من أنه ممازج لخلقه مختلط بهم. فهذا بيان لما قد يطرأ على نفوسكم من الإشكال الذي جرى في زمن شيخنا وجرى بسببه محنة يسيرة تخطاها رحمه الله بثاقب علمه ووفور عقله وحكمته وترك التعبير بهذا التعبير وهكذا ينبغي لطالب العلم أن يدع كل ما من شأنه أن يثير إشكالا أو لغطًا وأن يكون الرد للفظ القرآن والسنة ففيها غنية وكفاية.

([1]) ذكر شيخنا أن قول الشيخ معية حقيقة في التسجيل الصوتي وتم تعديلها للموجود بناء على توجيهه . حفظه الله ..

((ونظيرها من بعض الوجوه الربوبية والعبودية، فإنها وإن اشتركت في أصل الربوبية والتعبيد، فلما قال: {بِرَبِّ الْعَالَمِينَ • رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [الأعراف:١٢١-١٢٢] كانت ربوبية موسى وهارون لها اختصاص زائد على الربوبية العامة للخلق، فإن من أعطاه الله من الكمال أكثر مما أعطى غيره: فقد ربه ورباه، وربوبيته وتربيته أكمل من غيره.وكذلك قوله: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} [الإنسان:٦] و {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً} [الإسراء:١] .

فإن العبد تارة يعنى به المعبد فيعم الخلق كما في قوله: {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مريم:٩٣] ، وتارة يعنى به العابد فيخص، ثم يختلفون، فمن كان أعبد علمًا وحالاً، كانت عبوديته أكمل، فكانت الإضافة في حقه أكمل، مع أنها حقيقة في جميع المواضع.))

هذا تنظير ليقرب فهم لفظ المعية أنه تارة يكون مراد به الإطلاق: مطلق المقارنة والمصاحبة وتارة يخصه السياق بمعنى أخص. قال هذا كثير وله نظائر كلفظ الربوبية والعبودية. فإن الربوبية تنقسم لربوبية عامة تشمل جميع الخلق {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} لا يخرج عن ذلك أحد ؛لأن العلامين جمع عالم العالم وكل ما سوى الله، فجميع الخلق مربوبون لله، رباهم سبحانه بنعمه. لكن لما قال {رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} دل بأن لموسى وهارون ربوبية خاصة تدل على مزيد اعتناء واصطفاء وكلاءة منه سبحانه فتنقسم الربوبية لعامة بجميع الخلق وخاصة للمؤمنين المصطفين الأخيار.

وكذا أيضًا العبودية فالناس جميعًا عبيد الله وعباد الله لكن المؤمنون منهم الذين يعبدون الله عبادة طواعية لا عبادة قسر هم أخص في العبادة { عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} (الإنسان:٦) { إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} (الإسراء: ٣) { إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ } (الزخرف: ٥٩) مع أن الله ﷻ قال: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} (مريم: ٩٣) فالعبودية العامة هي العبودية القسرية الكونية التي لا يخرج عنها أحد. والعبودية الخاصة هي العبودية الطوعية ويتفاوت فيا الناس فأعظمهم حظًا فيها أنبياء الله ورسله ثم من يأتون بعد ذلك من الصالحين وقد أوضحنا هذا في التعليق على شرح رسالة العبودية لابن تيمية.

لعلنا نقف عند هذا الموضع لأننا وقفنا على موضع يحتاج إلى شيء من البيان فنرجئه للدرس القادم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.